الاستثمار التربوي في الطفولة المبكرة بمدارس التكوين

استراتيجيات متطورة لضمان البداية الصحيحةمن خلال مرحلة الروضة

د. سعيد بن سليم الكيتاني

من المسلم به اليوم- مصداقاً للحكمة القائلة اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد- أن عملية التعلم تبدأ منذ اللحظة الأولى لولادة الطفل وتستمر إلى آخر لحظة في حياته، بل أن هناك من يرى أن عملية التعلم تبدأ قبل ولادة الطفل حينما يكون جنيناً في أحشاء والدته، ويستند هذا الرأي إلى تجارب أجراها البعض لرصد ردود أفعال الأجنة حينما تسلك الأم سلوكاً معيناً، يشير العلماء المتخصصون في هذا الجانب إلى أن رحم الأم يصبح ملعباً حسياً للجنين منذ الأسبوع العاشر للحمل تقريباً، وبعد الأسبوع العشرين يستطيع الجنين أن يسمع الأصوات وأن يتذوق طعم المأكولات والمشروبات التي تتناولها الأم، وقد بُنيت على ذلك نظريات تدعو الأمهات إلى التصرف بطرق محددة خلال فترة الحمل ليكون لتصرفاتها تأثيرات إيجابية على الجنين.

• الطفولة المبكرة وأهميتها

هذا موضوع بحاجة إلى مقال مستقل لبحثه وتوضيح نظرياته ومفاهيمه وانعكاساته على تنشئة الطفل وتعليمه بعد ولادته، ما أود التركيز عليه في هذا المقال هو ما يعرف بمرحلة (الطفولة المبكرة) ودورها في تكوين شخصية الطفل، وما تقوم به مدارس التكوين في هذا الجانب، والمقصود بالطفولة المبكرة كما يعرّفها علماء النفس هو المرحلة العمرية التي تقع بين ولادة الطفل وبلوغه السن السادسة، وهي مرحلة مهمة للغاية في حياة الطفل حيث أنها تعتبر البوابة الأولى التي يدخل من خلالها المجتمع البشري عبر ملاحظة سلوك الناس حوله واكتسابه من عملية الملاحظة أساسيات الحياة.

في علم نفس النمو عادة ما يتم تخصيص مساحة مستقلة للحديث عن هذه المرحلة بشيءٍ من التفصيل، وذلك ليتسنى استعراض أوجه النمو التي تطرأ على الطفل خلالها، ومنها على سبيل المثال إدراك المحسوسات في البيئة المحيطة وتعلم الحبو والمشي وتناول المأكولات الصلبة واستخدام بعض الأشياء البسيطة والنمو التدريجي للوعي اللغوي والتحدث والوعي التدريجي للصواب والخطأ وإصدار أحكام بسيطة مبنية على ذلك الوعي، ويتضمن ذلك بطبيعة الحال غرس بذور منظومة القيم التي سيكون لها في مستقبل الطفل أثر عظيم، سواءً على المستوى التعليمي أو الاجتماعي أو المهني.

• الإبداع والابتكار لدى الطفل والمحافظة عليهما

خلال هذه المرحلة العمرية يتمتع الطفل بدرجة عالية من الاستقلال الفكري، حيث أنه يتصرف بفطرته وفضوله المعرفي الطبيعي ورغبته الملحة في تجربة الأشياء الجديدة المثيرة من حوله دون أي حساب للعواقب، روح المغامرة هذه لدى الطفل تجعل قابليته للتعلم عالية جداً مقارنة بالأطفال الأكبر سنّاً في مرحلة الطفولة المتوسطة وما بعدها، لذلك تشير الدراسات بشكل متكرر إلى أن نسبة الأطفال المبدعين خلال مرحلة الطفولة المبكرة تبلغ (٩٠٪) وما أن يخرج الأطفال من تلك المرحلة إلى المرحلة التالية حتى تنخفض تلك النسبة إلى (١٠٪) فقط، وتستمر النسبة في الانخفاض مع تقدم العمر.

هذا الانخفاض في نسبة عدد المبدعين من الأطفال كما تشير إليه الدراسات الحديثة يعكس فشل الأسرة والأنظمة التعليمية عموماً في المحافظة على قدرة الطفل على الإبداع وتعزيز تلك القدرة، كما يعكس كذلك أهمية استثمار مرحلة الطفولة المبكرة بالشكل الصحيح من أجل الأخذ بيد الطفل

في طريق الإبداع والابتكار وتنمية الملكات التي يكتسبها خلال فترة نموه المبكرة بفطرته الصافية وفضوله المعرفي والعلمي بعيداً عن عالم الراشدين الذين يفرضون على الطفل أحياناً قيوداً تُحدّ من حركته الحرة في استكشاف العالم من حوله.

● الروضة هي أساس بناء الشخصية بمدارس التكوين

إذا فهمنا ذلك كآباء وأمهات علينا إذن أن لا ننظر إلى رياض الأطفال كمؤسسات نعهد إليها مسؤولية رعاية أطفالنا لفترة من الزمن يتعذر خلالها تواجدنا معهم بسبب ارتباطات شخصية أو مهنية أو اجتماعية أو غير ذلك من الأسباب التي لا علاقة لها بالحرص على نوعية نشأة الطفل وتعلمه، وإذا فهمنا ذلك كتربويين علينا إذن أن نولي مرحلة الروضة عناية خاصة توازي أو حتى تفوق العناية التي نوليها للتعليم الأساسي بحلقتيه والتعليم ما بعد الأساسي، لأن هذه النظرة للطفولة المبكرة تجعلنا نفهم أن التأسيس الحقيقي للطفل يتم في هذه المرحلة وأن تجربة الطفل فيها تكون ذات أثر عميق في ما سيتقبل من حياة.

بعيداً عن العاطفة التي قد تأخذنا يميناً أو يساراً، وفي خضم عدد من البرامج التي تقدم هنا وهناك للأطفال في هذه المرحلة العمرية، ركزت مدارس التكوين الخاصة في الآونة الأخيرة- مستفيدة من خبرات متخصصة- على ما تقدمه للطفل في هذه المرحلة، بهدف تطوير تجربة الطفل بما يتناغم مع ما سبق بيانه من نظريات ونتائج الدراسات العلمية الرصينة في مجال الطفولة المبكرة، وبما ينسجم مع نتائج التحليلات الداخلية التي أجرتها المدرسة حول أداء أطفال روضة التكوين خلال هذه المرحلة والمراحل الدراسية التي تليها.

● التربية بالحب

ولا شك في أن المدخل الرئيس لتربية الطفل وتعليمه في هذه المرحلة هو مدخل (التربية بالحب) كما يعرّفه بعض المفكرين، وهو المدخل الذي ثبتت فاعليته في مدارس التكوين خلال رحلتها الطويلة نسبياً مع الأطفال، والمقصود بهذا المدخل هو التركيز في المقام الأول على الجانب النفسي للطفل من خلال كسر كل الحواجز بينه وبين المعلمة وبناء علاقة حب وود وثيقة بين الطرفين لتتمكن المعلمة من فهم احتياجات الطفل بوضوح ودقة وتصميم الأنشطة التربوية والتعليمية وفقاً لذلك، حيث تشير الدراسات والتجارب إلى

أننا لا نستطيع أن نساعد الطفل على اكتساب القيم والتعلم ما لم نكن على دراية تامة بمشاعره وأحاسيسه.

● بيئة تربوية يسودها المرح

يستلزم هذا المدخل بطبيعة الحال أن يكون الطفل في جوّ مفعم بالمظاهر الحسية التي تجسد الحب والود، ليس بين الطفل والمعلمة فقط بل بينه وبين أقرانه الأطفال في الروضة، ولا يتأتى ذلك إلاّ من خلال تخطيط بيئة تربوية وتعليمية يسودها المرح والعمل الجماعي الذي يأخذ في كثير من الأحيان شكل اللعب الهادف والمخطط والأنشطة التعليمية الترفيهية المحببة لدى الأطفال، وهنا تؤكد تجربة مدارس التكوين أن الطفل عبر مثل هذه الأجواء يتغلب على العديد من المشكلات التي يأتي بها إلى الروضة من منزله، منها مثلاً سوء التغذية ومص الأصابع وصعوبة النوم وعدم الرغبة في الاندماج مع الآخرين وغيرها من المشكلات السائدة لدى أطفال هذه المرحلة.

● غرس العقيدة وتعليم القرآن كمنطلق

هكذا تتوغل المعلمة في عوالم الطفل النفسية تدريجياً لكي تتمكن من مساعدته في اكتساب القيم والمعارف والمهارات بأسلوب تربوي جذاب يتفاعل الطفل معه بدرجة عالية من التقبل والانفتاح، ونظراً لأهمية هذه المرحلة العمرية وحساسيتها كما تبيّن سابقاً، فإن من أول ما يتناوله برنامج الروضة بمدارس التكوين هو غرس العقيدة الصحيحة من خلال تعليم الطفل أسماء الله الحسنى ومعانيها وعلاقتها بحياة الطفل (الخالق، الرحيم، الرزاق، البديع، إلخ) وتعليم تلاوة القرآن الكريم عبر القاعدة النورانية باستخدام التقنيات الحديثة المشوقة للطفل، وبأسلوب تدريجي يبدأ بتعلم الحروف والحركات والانتقال إلى المقاطع والكلمات ومن ثم إلى الجمل والآيات، يكاد الطفل يتدرج في التعلم لوحده متفاعلاً من زملائه دون جهد كبير من قبل المعلمة.

● تنويع الأساليب والأنشطة ومراعاة ميول الأطفال

هذه الاستراتيجية التربوية المنهجية التي تتبعها مدارس التكوين هي المنطلق الأساسي لمساعدة الطفل في فهم جميع الموضوعات والمفاهيم التي يتضمنها برنامج الروضة والتي تهدف في ما تهدف إليه إلى تهيئة الطفل تهيئة جيدة للالتحاق بالتعليم الأساسي بسلاسة ونجاح، وكل المؤشرات لدى مدارس التكوين توضح بجلاء العوائد التربوية الإيجابية الجمة التي تعود على طفل روضة مدارس التكوين على جميع الأصعدة، ويتم عبر هذه الاستراتيجية تنويع الأساليب والأنشطة، فبرنامج الروضة يتضمن التعلم من خلال اللعب بالمكعبات وتشكيل الصلصال واستخدام الرمل واستعمال الألوان والرسم وسرد القصص واللعب بالدمى القفازية وتعزيز قدرات الاستكشاف الاكتشاف لدى الأطفال وتعليم الحروف عن طريق الكولاج والشف والنسخ وترديد الأناشيد وكل ما من شأنه أن يحقق للطفل متعة حقيقية في بداية مشواره التعليمي، فالبداية هي التي تحدد ما إذا كان الطفل سيكون متعلماً ناجحاً أو أنه سيواجه صعوبات في مسيرة تعلمه.

● معلمة الروضة المحترفة ودورها الفاعل

وفي الختام لا بد من الإشارة هنا إلى أهمية ومحورية دور معلمة الروضة في تحقيق كل ما سبق، ومرة أخرى تؤكد تجربة مدارس التكوين في هذا الصدد ما أثبتته الدراسات مؤخراً من كون المعلم في مختلف المراحل الدراسية هو العامل الحاسم في نجاح أو فشل أي برنامج تعليمي، وإذا كان ذلك صحيحاً في التعليم الأساسي وما بعده، فإنه أكثر صحة في ما دون مرحلة التعليم الأساسي، لذلك فإننا في مدارس التكوين نولي عناية خاصة لعملية اختيار معلمات الروضة من حيث مؤهلاتهن العلمية وخبراتهن العملية وسماتهن الشخصية.

يتم اختيار معلمات الروضة حسب معايير محددة وواضحة تقضي أن تكون المعلمة متمكنة من الموضوعات المحددة لأطفال الروضة وأن تتمتع بالصبر والحلم وضبط النفس وأن تكون متزنة وأن تكون قادرة على فهم مشكلات الأطفال وعلى توظيف الوسائل التعليمية المناسبة وأن تكون الموجهة والمربية للأطفال وأن تكون قادرة على بناء علاقات جيدة مع أسر الأطفال وأن تكون قادرة على مساعدة الأطفال في التواصل، إلى آخر ذلك من سمات الشخصية التي يقتضيها عملها كمعلمة الروضة، وخلاصة القول في هذا الجانب هو أننا إذا كنا نسلم بأن مرحلة الطفولة المبكرة مرحلة حساسة وحرجة وتتطلب عناية خاصة فإن اختيار أفضل الكوادر للعمل مع الأطفال في هذه المرحلة تكون مسألة حتمية ولا مناص منها.